النمسوي ولم يصل اليهِ حتى بلغهُ انهُ جرت المعركة التي كانت الفاصلة بين النمسا وبروسيا فعاد بجنودهِ الى بيوتهم قبل ان يطلقوا بندقية . وحلَّ الامير جيشهُ سنة ١٨٦٨ مع ان بلادهُ لا تزال شاهرة الحرب على المانيا حسب قوانين الدول لانها خرجت الى الحرب ولم تخلَّ معاهدة الصلح لكنها كالبعوضة على قرن الثور لا يدري بوقوعها ولا بطيرانها . ولاميرها املاك وسيعة في بروسيا وسكسونيا كما لهُ في النمسا واذا اجتمع مجلس الامة الالمانية العام فلهُ فيهِ كرسي وصوت

مستقبل الصين

اخلاق الصينيين وعاداتهم

لا شك ان الصينيين امة منفردة بذاتها استقلت باخلاق وعادات لها واوضاع واحوال درجت عليها وان هذا السور الذي ادارتهُ من خلفها حاجباً بينها وبين غيرها من الامم واردفتهُ بسور آخر معنوي حوَّطت بهِ ارواح افرادها من منع خروج الخارج ودخول الداخل لتكون ارضها عقبة لم يجزها راكب لمَّا يجعل هذه الامة قسماً من البشر مستقلاً برأسهِ وجدانياً بنفسهِ ولذلك مع كون هذه الامة شرقية تجد بينها وبين سائر امم المشرق بوناً بعيداً حتى كأن سائر الشرقيين اقرب الى الغربيين ممَّا هم اليها وهذا ممَّا لا جدال فيهِ . وانما اختلف المؤرخون واهل النظر في الحكم على اخلاق وعادات الصينيين على ما هي عليهِ من خير وشرّ وهل هي اميل بجملتها الى جانب الفضيلة والصلاح ام الى جانب الرذيلة والفساد وذلك الاختلاف بسبب اختلاف اذواق السياح واغراضهم وتباين مشارب الكتَّاب واهوائهم فذهب بعض المرسلين من اهل اوربا الى ان اخلاق الصينيين في الدرك الاسفل من اخلاق البشر وانهم احوج الامم الى التثقيف واقلهم نصيباً من الفضائل وصوَّروهم باقبح الصور ومثَّلوا بهم اشنع التمثيل في الوصف حثّاً للاوربيين على الالتفات الى تلك البقعة واستدراراً لاخلاف جيوبهم للبذل في سبيل اصلاح سكانها ولكن هذه الطائفة من المبشرين اقل من الفرقة الثانية التي تميل الى الصينيين وتذكرهم بالخير وتمتدح الجمهور من اخلاقهم. ومنهم من ذهب الى ان الآداب الصينية اعلى من الآداب الاوربية . وما زال بعض هؤلاء الدعاة يبالغون في مدح اخلاق الصينيين في كتبهم ورسائلهم حتى اذاعوا لهم في اوربا احدوثة حسنى واطاروا لهم سمعة عظيمة في التهذيب والفضائل لم يوجد بعد البحث والاستقصاء ما يحققها او ما يحقق اكثرها فصحَّ ان الكتَّاب كانوا يمثلون الصينيين بحسب اغراضهم واذواقهم فمنهم المحب الغالي ومنهم المبغض القالي ولعل الاصح

هو الحد المتوسط بين الطرفين

اما الصينيون فيرون انفسهم اعلى كعباً في المدنية الصحيحة من الاوربيين و يطلقون على هؤلاء اسم "برابرة الغرب" و يستشهدون على ذلك بميلهم الى استئكال بعضهم بعضاً وقساوتهم في الحروب وتفننهم في آلات القتل وطرق الفناء وربما جاراهم على هذا الفكر غير واحد من الاوربيين الذين يقولون الحق ولو على انفسهم

والحق انهُ لا يوجد بقعة على سطح الكرة تحترم فيها العوائد والشعائر مثل بلاد الصين ولا يوجد اقليم ينقاد اهلهُ لدعوة الانسانية اكثر من هذا الاقليم فهم صفر الوجوه بيض الصنائع والوداعة عندهم خلق فطريٌّ نعم كبيرهم وصغيرهم ويسمون انفسهم اخوانًا فيقولون "رجال الابحر الاربعة اخوان" والأتراب منهم اخوان بعضهم لبعض ويكون بينهم من حقوق المشاربة ما بين الاخوان من حقوق الاخاء

ومن الدلائل على وداعتهم ان كثيرًا من سيَّاح الافرنجة جابوا اصقاع الصين بالعمارة مثل هو به وستشوان ورادوا قاصيتها ولم يتفق ان وقع لهم اقل اهانة ولا ان تعرض لهم احد بادنى سوء واذا وقع شيء من هذا القبيل في يونان او هونان فهو من النادر الذي لا يعتد به . واحسن ما يحتاط به الغريب لمنع ذلك ان يحتمي برجل من ذوي السنّ العالية فيكون كأنهُ دخل في حمى كليب فانهُ ليس على الصينيين شيءٌ اكرم من الشيخوخة . ثم انك لا تجد في كبار مدن الصين مع ازدحام الالوف في شوارعها سكيرًا واحدًا وان اشتهيت رؤية سكير لزمك ان تقصد الثغور البحرية حيث قد اختلط الاوربيون بالوطنيين واقتدى هؤلاء بهم فهناك ترى السكارى في الاسواق صرعى بنت العنقود كما في اوربا وحسبك ان الاولاد في المكاتب على جانب عظيم من الرزانة والطاعة للمعلمين مع صبرهم العجيب على الدرس وابتعادهم الزائد عن الغضب . واذا تأمل الانسان حركاتهم وسكناتهم وجدها حركات وسكنات قوم يشعرون على حداثة اسنانهم بانهم من اهل المدنية وانهم مرشحون لامور مهمة

عيب الصينيون في ضعف نفوسهم وفقد الاقدام الشخصيّ من بينهم ففاقهم الاوربيون في الجرأة والعزم كما فاقوا الأوربيين في الثبات والصبر ولا ينكر انهم من اهل الكد والسعي في كسب معاشهم لكن اعتمادهم في السعي على الثبات اكثر مما هو على الاقدام . ونقل عند الصينيين المطامح السياسية ويندر عندهم هذا الولوع بالرئاسة والتطاول الى السيادة والغلب كما هو عند كثير من الامم . وفي غرائزهم من حب السلام والركون الى الدعة ما لا يوجد عند أمة على وجه الارض ولا اظن توجد امة نقلّ فيها اشعار الحماسة واهازيج القوّة قلّتها عند الصينيين

فاكثر اغاني الفلاحين عندهم في معنى الحراثة والشغل كأنهُ لا يهيجهم الاَّ موضوع السلام

"عند ما ذهبنا كان النبات قد وسم وجه الارض وعند ما رجعنا كان النبات قد ذوى. السفر طويل والزاد قليل . كم اصابني شقاء بدون استحقاق منذ اضطررت لنقل السلاح وتركت المحراث"

وانت ترى انهُ لو كان فيهِ شيء من الخواطر الشعرية المعروفة عندنا لعقدتهُ شعرًا ولكنهُ اشبه باقوال المتصوفة والزهَّاد منهُ بالشعر فتركتهُ على حالهِ لئلاَّ تعيرهُ الديباجة الغربية شيئًا من مسحة الشعر العربيّ فينحرف عن اصلهِ . ولعمري ان من ادلّ الدلائل على طباع الصينيين ان تكون اهازيج فتيانهم في المحافل واغاني حداتهم اذا سالت الاباطح باعناق الرواحل عبارة عن تذكارات الراحة والدعة والشغل والحرث . وامَّة هذه افكارها وفتيانها تالفها لجديرة بان يوالي اليابانيون عليها الهزائم وهم نحو عشرها وان لا يكون لها في الحرب موطن يحمد

والشعر عندهم لا يخلو من علو الطبقة ودقة المعاني ولكنهُ يندر ان يوجد فيهِ النفس الشخصيّ والمذهب المخلص والطريقة المبتدعة وانما القوم على قواعد يراعونها وقيود يرسفون فيها واصطلاحات في التركيب ومناهج في الفكر لا يحيدون عنها يمنة ولا يسرة فلا يكاد يظهر معها المعنى المراد ولا تفيد فيهِ الشرائح. وكأن المباني عندهم اهم من المعاني حتى يصح في شعرائهم تمثل بعض المعاصرين في حق نفسهِ وقد نبَّههُ الى كثرة اعتنائهِ بالوصف مع الخلو من المعنى قال "فقل انا وزَّان وما انا شاعرٌ"

والصحيح ان الشعر غير الوزن وغير القفية وقد يكون النثر شعرًا ويكون النظم نثرًا في المعنى الذي نريدهُ . ولما كان الصينيون ينسجون الشعر على المنوال الذي تقدم وكان الغالب على افكارهم الحكم والامثال والمبادئ الادبية كان شعرهم اميل الى منظوم الحكم منهُ الى الخيال والانفعال فكأنهُ اليهم ينظر ابن خلدون فيما ذكر عن شعر الفقهاء والنحاة وما يقعد بهم عن التفنن والبلاغة من حفظ المتون واستظهار القواعد

وقد جمح بنا جواد القلم في موضوع الشعر الصينيّ من طريق الاستدلال به على اخلاق هذه الامة لان الشعر كما لا يخفى مرآة اخلاق الامم ومحكّ عوائدها ومنازعها وعنوان طباعها وعواطفها فلنرجع الى ما كنا فيهِ من اخلاق الصينيين وعوائدهم

فلا مشاحة ان من اشد الامور ارتباطًا في الصين واوثقها عقدة مما هي في كل الدنيا مسألة القرابة فالعيال في الصين مرتبطات بروابط لا توجد في بلاد غيرها والمملكة كلها تلقَّب بالمائة أسرة ثم هذه المائة أسرة في الآخر تندمج دمجًا واحدًا فتعُد اسرة واحدة . والفضائل

كلها عند الصينيين قائمة بطاعة الابناء للآباء . وفي وصايا كنفوشيوس ان المحبة البنوية هي اساس الاجتماع والقواعد الخمس الثابتات هي علاقة الاب مع ابنائهِ والملك مع رعيتهِ والزوج مع زوجتهِ والشيوخ مع الشبان والصديق مع الصديق . وكل سلطة عندهم مشتقة من سلطة الوالد على الولد وهو ما مكّن عرى الهيئة الاجتماعية الصينية ووثّق روابط الوحدة بين اجزاء هذه الأُمة . ثم ان الفضائل قائمة في الصين مقام الافراد في البلدان الاخرى فاذا جرى من الامور العمومية ما يستدعي صوت الامة مثل انتخاب اعضاء المجالس البلدية كان حق التصويت لرئيس الاسرة او مقدم العشيرة فهو الذي ينوب عنهم جميعاً وفيهِ تنحصر حقوقهم وبمقابلة ذلك هو المسؤول عنهم والمجزي بذنوبهم ان قدّموا خيراً كان الفضل لهُ وان قدموا شرًّا كانت اللائمة عليهِ ولكنهُ مطاعٌ فيهم اميرًا عليهم ولا تسمح الحكومة لولد ان يعق اباهُ او يشاقّهُ في امرٍ من الامور ومن يفعل ذلك يلقَ عذاباً اليماً ومن يجترئ على ابيهِ بضربة واحدة يعاقب عليها بالموت

ولكن الابناء عندهم يحترمون آباءهم الى درجة العبادة وقد شوهد في الجهات التي يشتد فيها الفقر ان شباناً باعوا انفسهم بتقديمها للقصاص بدلاً عن محكومٍ عليهم بالقتل حيث يجوّز القانون الصيني النيابة في العقوبات كما تقدّم لنا في فصل سابق وان ذلك البيع كان لاجل اعانة والديهم على المعيشة . فانت ترى انهم يفدون آباءهم بانفسهم . ولن يبلغ البرّ بالوالدين هذه الدرجة عند شعب من الشعوب بل نرى هذا الغلو في البرّ من القسم المذموم وكل شيءٍ تجاوز حدهُ فقد اشبه ضدّهُ . ثم اذا مات الاب فهي القيامة الكبرى فيمتدّ الحداد ثلاث سنوات لا يأكل احد من افراد الفصيلة اثناءها لحماً ولا يشرب خمرًا . ويتأنقون جدًّا في عمل نعش المتوفّى فاذا لم يملك الانسان الاّ ما يصنع بهِ نعشاً لابيهِ باعهُ بجذافيرهِ حتى يقوم بذلك الواجب

قيل ان بعضاً ممن لا يملكون شيئاً من حطام هذه الدنيا باع خيط رقبتهِ ليشتري بهِ نعشاً لابيهِ المتوفّى ورضي بالعبودية بدلاً عن النعش . ومنهم من يبقي نعش والدهِ في البيت فيجعلهُ قبلة لهُ وينام بجانبهِ نهارًا ويضطجع حذاءهُ ليلاً . وكيف كانت الحال فالولد في الصين خافض لوالدهِ جناح الذل من الرحمة سواء كانا في الحياة او بعد الممات . والعادة عندهم تعليق ترجمة المتوفّى في الهيكل وقد درجت القرون على ذلك وتعاقبت الاحقاب فاصبحت الانساب محفوظة بهذه الطريقة حفظاً لا يضاهيها فيهِ غيرها من الضبط ودرجة الثبوت . وانك لتجد الرجل من عُرض القوم يعرف آباءهُ وجدودهُ واحدًا واحدًا الى حد عشرين قرناً ولا تقتصر

معرفتهُ على اسمائهم فقط بل تتناول احوالهم ومواليدهم ووفياتهم . قال اوجين سيون في رحلته الى الصين انهم يظنون انفسهم خالدين بحفظهم ما وراءهم من تواريخ جدودهم ولذلك كان المطرودون من عيالهم منهم اشقياء فعلاً لانهم مطرودون من حظيرة الاجتماع الانساني

اما الاولاد فليس لهم هذا الشأن عند الموت وما قلت فيهم يقال في العزّاب والعبيد والنساء الغير الشرعيات . وكثير من الفقراء يلقون جثث اولادهم في مجاري الانهر وربما تركوها امام بيوتهم فجاء الدفّانون فاخذوها وهي عادة ذميمة عند اهل الصين واقبح منها ما هو معهود في بعض المقاطعات من قتل البنات خشية املاق على حد الوأد الذي كان معروفاً في الجاهلية مع اختلاف في الطريقة فالعرب كانوا يدفنون المولودة حيَّةً في القبر وهؤلاء يقتلونها غطساً في الماء البارد حتى تختنق . وتختلف الاسباب والوأدُ واحدٌ . وهذا ناشيء عندهم كما كان عند العرب عن خوف الحاجة او العار . وربما افتخروا بذلك كما افتخر العرب قائلين دفن البنات من المكرمات . واصل معنى الوأد عند العرب الثقل لأنها كانت تثقل بالتراب واول من منع من الوأد في الجاهلية صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ولما جاء الاسلام كان قد فدى ثلثمائة مؤودة والى ذلك اشار الفرزدق مفتخراً وحقٌّ لهُ الفخر

وجدّي الذي منع الوائدات واحيا الوئيد فلم تُوأد

ثم ابطل ذلك الاسلام ونزل قولهُ تعالى "ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم" والولاة في الصين يظهرون انكار هذه العادة ولا كبارها على فاعليها ولكنهم باطناً يعذرون اصحابها ويغضون الطرف عنهم . وهناك طريقة اخرى للتخلص من الفقر وهي بيع الاولاد والشائع بيع الاناث اكثر من الذكور

واما حالة النساء في الصين او على رأي كتاب العصر "حالة المرأة في الصين" فهي من اسوإ الحالات وحسبك دليلاً على ذلك قصر اقدامهن تلك العادة القبيحة التي استحسنها اهل الصين واصرّوا عليها ورأوا فيها الجمال الباهر واللطف الساحر اذ اعتدّوا مزيد الترف في دقة الطرف فاوجبوا تصغير الاقدام وعمدوا الى القوالب يضعونها فيها منذ يلوح البنت الخامسة او السادسة من العمر فتشأ قدمها صغيرة واصبحت المرأة الصينية لا تستطيع رفع شيء ثقيل من الارض ولا النهوض بسرعة ولا القيام بشغل فيهِ مشقة واذا تمشّت ترنحت تتخطى ذات اليمين وذات الشمال متوكئةً على ذراعيها كأنها تستمسك بالهواء لضعف قاعدة جسمها وهي المشية التي تأخذ بمجامع قلوب عشاقهم ويتغزل بها شعراؤهم فيشبهونها بتموجات الصفصاف حرّكهُ النسيم . وزعم بعضهم ان مبدأ هذه العادة كان عندهم سنة ٩٢٥ للمسيح وانها انتشرت فيما

فشيئاً حتى عمت البلاد الا باكين من الشمال وستشوان والولايات الجنوبية فان الفلاَّحات مستثنيات فيها من هذه العادة الذميمة . ويقال ان اكثر من ثلثي النساء في مدن الجنوب لا يقصرن اقدامهنَّ ومقصورات الاقدام منهنَّ انما هنَّ مقصورات الحجال لان المرأة التي لا تخضع لهذه العادة بحسب زعم اهل الصين تعد خارجة عن الجمعية المتمدنة ولا نصيب لها من الكياسة والحضارة . ولذلك كثير من الآباء الذين يستهجنون هذه العادة لا يجدون فدحةً من الخضوع لها وتحدث لبناتهم الامراض والآلام بسببها وهم صابرون لئلاَّ تفوتهم الكياسة ويطردوا من حلقة التمدن ولئلاَّ تحرم بناتهم الزواج فيلبثن في البيوت عراتق ويبقين كلاًّ على العوانق . ولا يخفى ما ينزل هذا الامر بالمرأة في درجة الاضطلاع على تدبير المنزل ولكن تنتهي الحيلة والمران باقتدار النساء على ذلك وبعض نساء الفلاحين يساعدن بعولتهنَّ في الحراثة والشغل والعادة طبيعة خامسة او حامسة كما يقول بعضهم

وعلى المرأة طاعة زوجها الى حد العبادة لانها من دونه ولكن طاعتها لوالديها لا تزال مقدَّمة. ومن امثال النسوة عندهم " اذا تزوجتُ طيرًا يجب ان اطير معهُ " فليس للمرأة ان تشكي ولا ان تتبرَّم ولا ان تحاكم بعلها الى القضاة وانما يجوز لها اذا اشتد عليها ظلم زوجها وضاقت مذاهبها ان تتوجه الى الهيكل وفي يدها ورقة عليها صورة زوجها فتعلقها منكوسة وتصلي لالهة الرحمة لكي تغيِّر لها قلب زوجها الى الاصلح لان قلبهُ منزحزح عن موضعهِ . وللزوج الحرية في الطلاق بدون مراجعة حاكم وليس يتعين ان يكون السبب مهمًّا فقد تطلق الزوجة لعاهة فيها او مرض اصابها او لهذرها . ولكن الصيني يجد طريقة للتخلص من امرأتهِ بدون ان يلحقها ضرر فانهم يبيعون نساءهم بالثمن فاذا كانت المرأة غير موافقة سرَّحها زوجها مبيعة من بعلٍ آخر فتخلَّص هو منها واعلقها بيتاً آخر تعيش فيهِ ورجلاً آخر يعولها ولبعض النسوة عادة في الانتحار عقيب وفاة ازواجهنَّ وهي عادة عزيزة عندهم لا يأتيها الا أُولات العزم فمنهنَّ من يختارن الموت بالافيون ومنهنَّ من يلقينَ بانفسهنَّ في الماء ومنهنَّ من تشنق نفسها بيدها وكلهنَّ يخالفنَ الهنديَّات في امر الحريق . ومتى عزمت المرأة على الانتحار اعلنت عزمها هذا فجاء الاهل والجيران والاصحاب يحمسونها على كريم فعلها عندهم ويهنئونها عليهِ بدلاً من ان ينهوها عن هذه الفظاعة والظاهر ان قتل النفس يهون عند اهل تلك البلاد فانهُ لما دخلت العساكر الاوربية اقليم تشيلي سنة ١٨٦ انتحر الوف من الصينيات خشية الوقوع في ايدي الاجانب . ولو كان يهون عند اهل الصين قتل الغير كما يهون عندهم قتل النفس لما اقتحمتهم امة ولا استباحت حماهم دولة ولكن قتل النفس من الجبن وهم عريقون في هذه الخلَّة

شكيب ارسلان